مابعد البنيويّة:
مقاربة تحليليّة نقديّة للمفهوم والمسار

غيضان السيّد علي[1]

تمهيد

قد يعتقد بعض الباحثين للوهلة الأولى أنّ مابعد البنيويّة[2] هي امتداد طبيعي للبنيويّة[3] وتطوّر لها، وهذا لا يعدّ صحيحًا؛ فمابعد البنيويّة هو اتّجاه مختلف تمامًا عن الاتجاه البنيوي؛ إذ إنّه ظهر عقب انهيار «البنيويّة» في أوائل السبعينات من القرن العشرين كرد فعل على مذهبها القائل إنّ النص متكامل وثابت. كما نجد أن أبرز مابعد البنيويين، وهو جاك دريدا الذي انتقل من «البنيويّة» إلى «مابعد بعدها»، يصرّح كثيرًا بأنّ موقفه المابعد البنيوي يتعارض مع موقفه البنيوي السابق بشكلٍ واضح؛ ولذلك يُفضّل العديد من الباحثين الفصل التام بين الاتّجاه البنيوي والاتجاه مابعد البنيوي، ويقصرون الاتّجاه الأوّل على كتابات: دي سوسير، وياكوبسن، وليفي شتراوس، وغريماس، بوصفهم مشتركين في نمط تفكير خاصّ بالبنيات. بينما تتمثّل «مابعد البنيويّة» في كتابات: رولان

١. أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة بكلية الآداب جامعة بني سويف – مصر.

2. Post-structuralism

3. Structuralism

بارت، وجاك دريدا، وميشيل فوكو، ولاكان، وباتاي، وليفيناس وغيرهم من فلاسفة اللاعقلانيّة السائلة أو تيار الماديّة الجديدة الذين يستهدفون تدمير قيم العقلانيّة التي تبنّتها فلسفة الحداثة، ويؤمنون بتعدّد المعاني والقراءات للنص الواحد، ويرون أنّ الإنسان ليس بإمكانه الوصول إلى الحقيقة النهائيّة؛ فالمعنى في حالة متواصلة من السيلان والصيرورة.

تعدّ «مابعد البنيويّة» أحد تيّارات مابعد الحداثة، وترتبط بوشائج قربى معها، إذ تعبّر في صميمها عن تجلّيات مابعد الحداثة في كافة المجالات. وقد تأثّرت إلى حدّ بعيد بالظاهراتية لدرجة أنّ كثيرًا من الأكاديميّين المتخصّصين في الفلسفة المعاصرة يرون أنّ التسمية الأنسب لها هي «مابعد الظاهراتيّة»، حيث ينظر المنهج الظاهراتي إلى العالم بوصفه نصًّا مفتوحًا على التأويل للبحث في الوجود وماهيّته؛ ممّا يفتح المجال أمام تعدد القراءات والتفسيرات. كما تركّز الظاهراتية على القارئ بوصفه شخصيّة فاعلة في القراءة وعمليّة إنتاج المعنى، حيث التفاعل بين القارئ والنص المقروء. وهو الأمر الذي نلاحظه بوضوح عند رموز الظاهراتية من أمثال هوسرل وهيدغر، وسنلاحظه بقوة عند مابعد البنيويّين والتفكيكيّين.

تنقسم «مابعد البنيويّة» إلى ثلاثة جماعات: جماعة تيلكيل[1] مع دريدا، وكريستيفا، وبارت في مرحلته الأخيرة من خلال كتابيه: «لذة النص» و«من الأثر إلى النص». وجماعة دولوز، وغاتري، وفوكو في مرحلته الأخيرة كما ظهر في كتاباته المتأخّرة: «المراقبة والمعاقبة»، و«تاريخ الجنس». وبودريار، (كفرد بصيغة جمع). وتتميّز «مابعد البنيويّة» بأنّها توجُّهٌ لمجموعة من الفلاسفة المشاكسين الذين يشتركون في موقف فلسفي جديد وخاصّ، وهو موقف لا يتلاءم مع

1. Telquel

مفهوم البنية وحسب، بل إنّه أيضًا موقف لا علمي إلى حدّ بعيد؛ حيث يدفع «مابعد البنيويون» الآثار الفلسفيّة لنمط تفكير ما فوق البنية إلى الخلف لصالح الموقف التقليدي للموضوعيّة والحقيقة، الذي عند تهديمه، تصير المعرفة العلميّة أقل قيمة من النشاط الفلسفي والأدبي، بالتالي تتم تنحية التحليل الملاحظاتي الدقيق، والشبكات التفسيرية الموسعة لصالح القبس الفوري للإشراق المباشر. ومن هنا وُجِّه إلى «مابعد البنيويّة» كثيرًا من أوجه النقد، لعل أهمها أنها نسبيّة وعدمية، كما اعترض بعض الباحثين على تطرفها وتعقيدها اللغوي ورأوا فيها تهديدًا للقيم التقليدية والمعايير المهنية العلميّة.

انطلاقًا من هذا النزوع التصديمي لمابعد البنيويّة تعد التفكيكيّة[1] -وهي المصطلح الملازم لهذا التيّار- أحد أهم الجوانب الدراسيّة لمابعد البنيويّة؛ إذ تُعرف التفكيكيّة بأنّها حركة ضدّ البنيويّة مهما حاول البنيويّون حشرها ضمن مذاهبهم، ذلك لأنّها تعمل على تفكيك الخطابات والنظم الفكريّة بهدف الوصول إلى محور معانيها ومقاصدها اللانهائية؛ أي أنها تعمل على فكّ الارتباط بهدف النظر في خبايا الشيء وفهمه. ويتخذ التفكيك عدّة مظاهر، فأحيانًا يظهر بصورة فلسفيّة، أو سياسيّة، أو فكريّة، أو أدبيّة، أو على شكل أسلوب في القراءة. والقراءة التفكيكيّة تهدف إلى خلق شرخ بين ما يعرضه النص بشكل صريح، وبينَ ما يحمله من معانٍ خفيّة. كما أنّه يهدف إلى الوصول لأساس الشيء ومصدره لكشف حقيقته المخفيّة. وتعد التفكيكيّة من أهم المباني المنهجية في اتجاه «مابعد البنيويّة»، ولا سيما في الفلسفة والنقد الأدبي، فضلًا عن كونها الحركة الأكثر إثارة للجدل، فقلّما يخلو أي مركز فكري في أوروبا وأميركا من الجدل في قيمة هذه

---

1. Deconstruction

النظريّة الجديدة في مجالي الفلسفة والنقد الأدبي[١].

سوف يعمل هذا البحث على دراسة «مابعد البنيويّة ومنهجيّة التفكيك» في إطار دراسة نقديّة مباشرة تحاول الكشف عن حقيقة هذه الحركة التي تندرج تحت سلسلة «المابعديّات»، تلك (المابعديّات) التي أصبحت «موضة» فكريّة في الفلسفة الغربيّة الراهنة، والتي تكشف لنا دومًا بعد دراستها دراسة نقديّة عن جملة من الاختلالات التكوينية في بناءات التفكير الفلسفي الغربي.

أوّلًا: مصطلح «مابعد البنيويّة» في مقابل مصطلح «البنية»

يعد مصطلح «مابعد البنيويّة» تسمية وضعها أكاديميون أميركيون للدلالة على أعمال غير متجانسة لمفكرين فرنسيين في العقد السادس والسابع من القرن العشرين، وتشمل التسمية التطورات الفكريّة البارزة في النصف الثاني من القرن العشرين للفلاسفة والمنظرين الفرنسيين. وتتعلّق «مابعد البنيويّة» بموضوعات النقد الأدبيّ وموضوعات الفلسفة؛ إذ تتبنّى مذهبًا يقوم على أن اللغة ليست وسيلة واضحة ومباشرة لإيصال الحقيقة أو الواقع، إنّما هيَ بنية أو شفرة تمتلك المعنى عن طريق التباين بين أجزاء اللغة نفسها، وليس بارتباطها بالعالم الخارجيّ. وتنفي «مابعد البنيويّة» إمكانية إجراء دراسة حقيقية للإنسان أو للطبيعة البشرية، لكن يمكن تحليلها من خلال سرد التطوّر التاريخي. أي أنّ البنيويّة تنظر إلى الإنسان بوصفه كائنًا مماثلًا لأي كائن حي أو غير حي على وجه الأرض، فهو مؤلّف من بنيات مصغّرة، وأنه ينبغي تحليل هذه البنيات المصغرة لكي نفهمه؛ فعالم النفس يحلل بنيته النفسية، وعالم الاجتماع يحلل بنيته الاجتماعيّة، وعالم الأديان يحلل بنيته الدينية، الخ. وهذه هي الدراسة البنيويّة العلميّة للإنسان.

---

١. بلعفير، «البنيويّة (النشأة والمفهوم) عرض ونقد»، ٢٣٢.

وهكذا تعد «مابعد البنيويّة» في حقيقتها ثورة على «البنيويّة» وفكرها الاستاتيكي؛ إذ ظهرت البنيويّة -في الأساس- كرد فعل على تشظي المعرفة وتفرعها إلى تخصصات دقيقة منعزلة؛ لذلك دعت البنيويّة إلى النظام الكلي المتكامل والمتناسق الذي يوحّد العلوم ويربطها ببعض بعيدًا عن التجزئة التي أحدثها الاتجاه إلى التخصّصات الدقيقة التي سبّبت عزلة الإنسان وضياعه؛ لذلك وجدت ضالّتها في مفهوم البنية؛ حيث يرى البنيويون أن البنية تكاد تكون هي المحرك الأوّل، فهم يرون أن البنية تسبق العقل الإنساني، ولذا نجد أن بُنى اللغة والأساطير -من منظور بنيوي- هي التي تتحدث من خلال الإنسان، ويلاحظ أن البنية لها كل صفات الذات الإنسانيّة وتحل محلها وتزيحها من مكانها[١].

البنيويّة .كما تجلت عند ليفي شتراوس[٢] (١٨٩٨-٢٠٠٩م)- تعني أنّ هناك بنية ذهنيّة عميقة تتحكّم بتصرّفات الأفراد وسلوكهم دون أن يدروا، وأن هناك ثوابت تتحكّم بالطبيعة البشريّة من خلال هذه التركيبة النفسيّة أو البنية العميقة الموجودة لدى كل فرد منّا، وأن الطبيعة البشريّة واحدة سواء أكنّا في مجتمعات بدائيّة أم مجتمعات متقدمة؛ لأنّ الإنسان هو الإنسان أينما كان، فهو يحب ويكره ويولد ويفنى في كل زمان ومكان؛ لذا يؤكّد شتراوس على أن هناك صفات بنيويّة للطبيعة البشرية لا تتغيّر ولا تتبدّل؛ فالإنسان محكوم بالبيئة والظروف والطبقة الاجتماعيّة التي ولد فيها أو الطائفة والقبيلة، وليس حرًّا إلى الحد الذي يتوهمه جان بول سارتر. وبالتالي فالبنيويّة هي فلسفة الحتميّة لا الحرية. وقد شرح ليفي شتراوس أفكاره هذه في كتب عديدة مشهورة: كالأنثروبولوجيا البنيويّة، والمدارات الحزينة، والعرق والتاريخ، الخ. وهذا هو الأمر الذي جعل المفكّر

---

١. المسيري، «دريدا في القاهرة: التفكيكيّة والجنون»، ٣٣٥.

2. Claude Levi-Strauss

الفرنسي روجيه غارودي يقول في نقد البنيويّة: «إن مفهوم البنية -في أيامنا هذه- يحمل فلسفة تمثّل في طبعتها الدوغمائيّة نقطة الوصول لفلسفة موت الإنسان.

وبالفعل، فإنّ المقولة الأساسيّة في المنظور البنيوي ليست هي مقولة الكينونة، بل مقولة الطلاقة. وعليه، فإنّ الأطروحة المركزيّة للبنيويّة هي توكيد أسبقية العلاقة على الكينونة، وأولوية الكل على الأجزاء، فالعنصر لا معنى له ولا قوام إلّا بعقدة العلاقات المكوِّنة له. ولا سبيل إلى تعريف الوحدات إلا بعلاقاتها، فهي أشكال، لا جواهر»[١].

كما ضيقت البنيويّة مساحات الحرية الفردية؛ لذلك ثار عليها رولان بارت في مرحلته الثانية عندما تخلّى عنها وراح يدرس الأعمال الأدبيّة بطريقة أخرى. وعلى هذا الأساس راح ينتقل من مرحلة البنيويّة إلى مرحلة مابعد البنيويّة.

وحسب بعض النقّاد: «كانت البنيويّة إحدى المحاولات الأخيرة للحاق بروح الفلسفة الحديثة التي فقدتها الفلسفة المعاصرة، والعودة من ماركس إلى هيغل لاكتشاف البنية عبر التاريخ. ثم جاءت النتيجة أنها انتهت إلى بنية فارغة من أي مضمون، وعادت إلى الصورية، أي إلى الوجود في الأذهان وليس الوجود في الأعيان.

ووقعت في عالم الضرورة الخالي من الحرية يتحكم فيها قانون الطرفين والوسط من دون حيوية الفعل ورد الفعل، وبمعزل عن الصراع والتناقض. كما وجدت مادتها أيضًا في اللغة كعالم مستقل بذاته، صوتيات وأبنية وتراكيب وعلامات، أو في أساطير الشعوب البدائيّة وعاداتها وأعرافها للبحث عن البدائي الأوّليّ

---

١. غارودي، البنيويّة فلسفة موت الإنسان، ١٣.

الفطري قبل أساليب التحضر وقضايا المنطق. النيئ قبل المطبوخ، والعسل قبل السكر، والطعام قبل آداب المائدة»[١].

من هنا جاءت مابعد البنيويّة لتتجاوز تلك الأخطاء التي وقعت فيها البنيويّة، حيث إنّ معظم أنصارها قد تحولوا نحو منقلب آخر، كما سنلاحظ مع رولان بارت وجاك دريدا وفوكو ولاكان.

ثانيًا: أفكار مابعد البنيويّة كما تمثّلت عند أهم أعلامها

تقترن أطروحات مع بعد البنيويّة بأفكار مجموعة من الفلاسفة والمفكرين الذين مثّلوا هذا الاتجاه؛ حيث ارتبطت فكرة «موت المؤلِّف» على سبيل المثال برولان بارت، كما ارتبطت «فلسفة الاختلاف» و«البنية والدال واللعب» بجاك دريدا، وفوكو ولاكان[٢] على الرغم من أن هؤلاء كانوا في البداية بنيويين. هناك جانب آخر من فكر مابعد البنيويّة يشمل التساؤل الجذري بشأن الغيرية أو «الآخرية[٣]» عند (ليفيناس وباتاي) وكذلك شأن العلاقة بين الذات والموضوع. وفي عمل دولوز، المستلهم من نيتشه نجد أنّ الشجرة (وتعني البحث عن الجذور) الخاصة بعلاقة الذات بالموضوع تتم مقارنتها بالجذمور[٤]، وهي ساق أرضية شبيهة بالجذر العائد للفكر الأفقي، أو الفكر في حركة دائمة[٥]. وبفحص أفكار هؤلاء الفلاسفة والمفكّرين سنقف على حقيقة فكر مابعد البنيويّة. وذلك من خلال ما يلي:

---

١. حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، ٧١٤-٧١٥.

2. Lacan

3. Otherness

4. Rhizome

٥. ليشته، خمسون مفكرًا أساسيًا معاصرًا من البنيويّة إلى مابعد الحداثة، ٢٠١.

رولان بارت ونظريّة موت المؤلِّف

تحوّل رولان بارت (١٩١٥-١٩٨٠م) عن «البنيويّة» إلى «مابعد البنيويّة»، محاولًا تقديم رؤية فلسفيّة تتّفق مع نزعته النقديّة وثقافته الواسعة؛ فعمل على تقديم نظريّة «موت المؤلِّف» التي لم تكن شطحة فكريّة أو نظريّة عبثيّة، لكنّها كانت مقصودة بإحكام؛ حيث حاول أن ينقل الوعي الأوروبي من التقليد إلى المعرفة والبحث، ومن ترديد أقوال المشاهير إلى تفعيل مقولة الأنا. وقد لاقت هذه النظريّة اهتمامًا كبيرًا في الأوساط الفكريّة والأدبيّة، خاصة أنّها جاءت كنقد أساسي لنظريات النقد التقليدي التي تهتم عند دراسة العمل الأدبي بدراسة حياة الأديب وظروف حياته التي دعته إلى تأليف هذا العمل، فكما يقول بارت: «بالعثور على المؤلِّف يكون النصّ قد وجد تفسيره والناقد ضالّته»[1]. ومن ثم يرفض بارت هذا الاتجاه مؤكدًا على استبدال اللغة بالمؤلِّف، مؤكدًا تأويل وتحليل العمل الأدبي بالاعتماد على تحليل الألفاظ والتراكيب واللغة التي استخدمها المؤلِّف للتعبير عن أفكاره وآرائه بعيدًا تمامًا عن المؤلِّف وظروفه.

وتعني نظريّة «موت المؤلِّف» تحرير النص بمختلف أشكاله وأنواعه من مؤلِّفه، وترك القارئ لكي يقرأه بمعزل عن مؤلفه، وبمعزل عن المعاني والدلالات التي أراد المؤلِّف أن يوصلها من خلال الكلمات والجمل المكونة للنص الذي كتبه، ليحلّ بدلًا منها تلك المعاني والدلالات التي يستخرجها القارئ بنفسه من النص. إلى ذلك تُسقط نظريّة «موت المؤلِّف» كافة السياقات التي جاء في ضوئها النصّ، هذا فضلًا عن العوامل المؤثرة في كاتب النص عند كتابته له، إلخ[2].

---

١. بارت، مقالة موت المؤلِّف – درس السيميولوجيا، ٨١.

٢. الأبنودي، «اغتيال النص– نقد نظريّة موت المؤلِّف لرولان بارت (قراءة هيرمنيوطيقية)».

وبناء على ذلك انتقل بارت في دراسته من أهمية الكاتب/ المؤلِّف في تركيب النص الأدبي باعتماد معايير وبُنى جاهزة الصنع إلى دور قارئ النص في توليد معانٍ جديدة لا نهاية لها؛ وذلك في ضوء التراكم المعرفي والثقافي للقارئ من ناحية، والعوامل المؤثرة فيه من ناحية ثانية، والسياقات الاجتماعيّة والدينيّة والثقافيّة والسياسيّة... السائدة في عصره من ناحية ثالثة[١]. أي أنّ القارئ يجد نفسه مخيرًا بين القراءة الحرفيّة والوقوف عند المعنى الظاهري من النص، أو القراءة المجازيّة؛ أي مجاوزة المعنى الحرفي الظاهري إلى المعنى الباطني والوقوف على الدلالات الرمزية المفارقة للنص الحرفي. لقد جاء هذا الرأي لدى بارت بصورة أساسية في مقالته «موت المؤلِّف»[٢] التي ظهرت للمرة الأولى عام ١٩٦٨م، وقد أعاد نشرها ضمن مجموعة من المقالات في كتاب يحمل عنوان: (الصورة - الموسيقى - النص)، وتمت ترجمتها إلى العربية في كتاب يحمل عنوان: «درس السيميولوجيا»، حيث أعلن فيها استقلالية النص وحصانته ضد أي تقييد له بمعايير أو بحدود مضمونة أو بحدود ما قصده الكاتب منه، فيصبح القارئ بهذا هو المنتج للنص ولمعانٍ متجددة فيه. كما يؤكد بارت في كتابه: «لذة النص[٣]» (١٩٧٥) أنّه في غياب الكاتب تصبح عملية إيجاد تأويلات للنص عملية عبثية لا نهاية لها، لكنها ممتعة، حيث «يبدأ النص غير الثابت، النص المستحيل مع الكاتب وقارئه، وما لم يجتمع هذا النص مع متعة نص آخر، فإنه يقع خارج اللذة، وخارج النقد»[٤]. وتأتي المتعة من امتلاك النص لإمكانات «اللعب» بالمعاني. ولكن هذا

---

١. م. ن.

2. Barthes, *La mort d'un auteur.*

3. Barthes, *Le plaisir du texte.*

٤. بارت، لذة النص، ٤٩.

لا يعني تخليًا فوضويًا عن كل القيود، وإنما تفكيكًا وهدمًا منظمين لإنتاج معانٍ أخرى، وكأن القارئ يعيد كتابة النص، فيصبح منتجًا له وليس مستهلكًا، وهذا هو أساس المذهب التفكيكي، الذي طوره دريدا، ويعد أساس «مابعد البنيويّة». أي أنّ الكتابة عند بارت: «تبدأ من الصفر وتنتهي إلى الصفر»[١].

وفي الحقيقة أن بارت يكمل بنظريّة «موت المؤلِّف» فلسفة موت الإنسان في الفلسفة المعاصرة، حيث إنّه يجرد النص من أصله ويسلخه عن ماضيه، بل بعبارة أدق: يغتال النص برمّته ليحل محله نصًا آخر خلقه القارئ ولا يعترف به أحدٌ سواه؛ إنها النسبية السفسطائية ذاتها التي تجعل من الإنسان الفرد مقياسًا لكل معنى.

جاك دريدا: البنية والدال واللعب

يحرص أنصار «مابعد البنيويّة» على اللعب بقضية العلاقة بين الدال والمدلول، وبيان عدم ثباتها، فالدوال غير ثابتة مع المدلولات لكونها حركية ديناميكية تعمل على تعدد المعنى وتنوعه. فقد كان لمقالة دريدا الشهيرة «البنية والدال واللعب في خطاب العلوم الإنسانيّة» (١٩٦٦) أكبر الأثر في الخطاب مابعد البنيوي، إذ شكك فيها بأسس البنيويّة بقوله: «بنية بلا أي مركز تمثل اللّامتصور ذاته»[٢]، أي أنّه لكي لا تنهار البنية يجب أن يكون لها مركز خارج هذه البُنى، ووجود هذا المركز يدحض فكرة البنيويّة ويظهر تناقضها من الداخل[٣]. وهو يرى أنّ هذا المركز غير ثابت، فمثلًا إذا نظرنا إلى المتضادات الثنائيّة على أنها الأحجار التي

١. حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، ٧١٤.
٢. دريدا، «البنية والدال واللعب في خطاب العلوم الإنسانيّة»، ٢٣٤.
٣. م. ن، ٢٣٤-٢٣٥.

تشكل البُنى، نرى أنها تعمل بصورة نسقيّة هرميّة؛ إذ تسيطر واحدة على الأخرى وتتمايز عنها (مثل ثنائيّة ذكر/ أنثى)، ولكن إذا قلبت علامة التمايز هذه يتولّد منطق تفكيكي يهدم البنية ويهزّ استقرارها ليعيد خلق معان جديدة دائمة التغير. كما يرى دريدا أنّ البنية ملوّثة بالميتافيزيقا، فهي وجود يشبه مقولات كانط[1] (١٧٢٤-١٨٠٤م) الفطرية المتجاوزة لعالم التفاصيل الحسيّة والصيرورة[2].

ومن ثم حرص دريدا على التمرد على البنيويّة، مؤكدًا على أنّ البنيويّة ما هي إلا حلقة في سلسلة طويلة من البنيويات المختلفة، وهي على استعداد أن ترد ذاتها إلى نقطة حضور واحدة أو مركز أو أصل ثابت هدفه وضع حدود على لعب البنية. إن مركز البنية قد يسمح بلعب عناصرها الأساسيّة، ولكنه لعب يتم داخل الشكل الكلي الثابت الذي له مركز وله معنى، فهو لعب يصل إلى نقطة نهائية عند مدلول متجاوز[3].

والمدلول المتجاوز في الثقافة الغربيّة يشير أحيانًا إلى «الإله» و«روح العالم» و«الذات» و«المادة» و«الحضور المطلق» و«اللوغوس» و«الكل الثابت المتجاوز» ماديًّا كان أم روحيًّا، وهو الركيزة الأساسيّة لكل الدوال، فهو ليس جزءًا من اللغة؛ ولذا يقف خارج لعب الدوال، ويوقف انزلاقيتها وانفصالها عن المدلولات. ووجود مدلول متجاوز (مفارق) هو الطريقة الوحيدة لكي نخرج من عالم الحس والكمون والصيرورة، ونوقف لعب الدوال إلى ما لا نهاية. وبالتالي فهو الأساس الثابت الذي تستند إليه كل المفاهيم الإنسانيّة وتكتسب منه الثبات، وعليه، يمكن للإنسان أن يؤسّس المنظومات المعرفيّة والأخلاقيّة. ولعل أهم

---

1. Kant

٢. المسيري، «دريدا في القاهرة: التفكيكيّة والجنون»، ٣٣٥.

٣. م. ن، ٣٣٥.

الدوال المتجاوزة في الحضارات التقليديّة (بما في ذلك الحضارة الغربيّة قبل عصر نهضتها)، هو الإله. ولكن مع بداية التشكُّل الحضاري الغربي الحديث أعلنت هذه الحضارة أن الإله إما غير موجود، أو أنه إذا وجد فهو غير مهم في تفسير الكون الذي يحوي مركزه داخله، ثم أكدت هذه الحضارة مركزيّة الإنسان، وأنه العنصر الأهم في النظام الطبيعي، فهو تجسيد للمركز، وهو مدلولها المتجاوز[١].

لقد رفض دريدا هذا الفهم البنيوي الذي يتمحور حول مركز مطلق ومعنى ثابت، ودعا إلى فهم آخر، مابعد بنيوي، يؤكّد على عدم ثبات المعنى وانهيار العلاقة بين الدالّ والمدلول، بل وتحطيم كل العلاقات بين كل الثنائيات: الدال والمدلول، الغريب والمواطن، الواقع والمثال، الحلم والحقيقة، الخير والشر، المذكر والمؤنث. لإقرار حقيقة المتردِّد اللّايقيني في عبارة (لا هذا ولا ذاك). وهكذا يُرسي دريدا قواعد فلسفة تقويضية انزلاقية تسعى لكسر حدود الكلمات والجمل والمعاني، وليفرض معاني جديدة، ويحبّذ الانزلاق بين الدوال ويجيد اللعب بها، مما يجعل قارئه كمن يسير على سطح أملس، فيركّز على الاحتفاظ بتوازنه حتى لا يسقط، بدلًا من أن يلاحظ عمق التناقضات وسطحية الأفكار في كتاباته وطبيعة الألعاب اللغوية التي تخبّئ كل هذا. وهذا هو السبب الذي دفع المفكّر المصري الراحل عبد الوهاب المسيري توجيه نقد لاذع لفيلسوف التفكيك بقوله: «إن أسلوب دريدا تعبير غير أنيق عن العدميّة»[٢].

ولذلك جاز القول إنّ مشروع دريدا الفلسفي هو محاولة لهدم الأنطولوجيا الغربيّة المبنية على ثنائيات، مثل: الشكل والمضمون، الإنسان والطبيعة، المطلق

---

١. م. ن، ٣٣٦.

٢. م. ن، ٣٣٧.

والنسبي، الثابت والمتحول. وهي ثنائيات تستند إلى مدلول ثابت متجاوز. وبدلًا من ذلك يحاول دريدا أن يسقط أو يقوّض من ثبات المدلول المتجاوز بالمعنى الديني أو المادي عن طريق إثبات تناقضه وأنه هو نفسه جزء من الصيرورة المادية، وهو بذلك يمكنه أن يلغي الحدود بين الثنائيات المترتبة على وجود المدلول المتجاوز، وصولًا إلى عالم من الصيرورة الكاملة بلا أساس وبلا أصل رباني، بل من دون أي أصل على الإطلاق، بحيث يتم التسوية فيه بين كل الأشياء وتسود النسبية المطلقة. إنه عالم تتداخل فيه النصوص مع بعضها كتداخل الدوال بالمدلولات، ولا يمكن الحديث عن نص مقابل الواقع، أو عن نص ومعنى النص. وهذه الرؤية العدمية الفلسفيّة جاءت بها التفكيكية لتشكل منهجًا لقراءة النصوص[١]. وهكذا تؤكد فلسفة دريدا على موت المعنى، والوقوع في متاهات لفظية بدعوى تحليل الخطاب من أجل الانتهاء إلى لا شيء، لم يعد هناك شيء يتماثل مع آخر، ولم تعد هناك معرفة ممكنة، واستحال الاستدلال في نفسه وعلى غيره.

فضلًا عن ذلك، فقد أصبح الوصول إلى الحقيقة النهائية أمرًا غير ممكن، فالمعنى عند دريدا في حالة متواصلة من الجريان والصيرورة. والإنسان إنما يستطيع بيان فهمه عنها، وهو يرى أن هذه الأفهام تقع بدورها في متاهة لعبة الدلالات، وإن سعيّ الإنسان إلى معرفة الحقيقة (بحيث تتجرّد عن عنصر التغيير والسيلان) يذهب سُدى. ومن ناحية أخرى، يذهب دريدا إلى الاعتقاد بأن الحقيقة بمنزلة الطيف الذي ينظر إليه كل شخص من زاويته ورؤيته، وهذا يؤدي بدوره إلى خلق نوع من التفكير القائم على أساس التعدّديّة، الأمر الذي يفضي في نهاية

---

١. م. ن.

المطاف إلى إغلاق الطريق الموصل إلى الحقيقة. كما يذهب دريدا إلى الاعتقاد بأن المعنى قد تحول إلى أمر أسطوري، وأن العثور على الحقيقة ليس سوى أسطورة[١]. وهكذا لا تسعى مابعد البنيويّة إلى إيجاد أرضية صلبة تقيم عليه صرح المعرفة والعلم البشري، وإنما تقوض كل بناء وتقوم بثورة على كل معنى ثابت ونهائي.

ميشال فوكو من الأركيولوجيا إلى الجينالوجيا

يعد ميشال فوكو من أهم فلاسفة مابعد البنيويّة؛ حيث قدّم النسخة المبكرة لفكر مابعد البنيويّة في كتابه «حفريات المعرفة» ١٩٦٩م، وقد تحوّل فيه فوكو من النسق إلى الخطاب، واهتم بدراسة العبارة ووظيفتها في الخطاب وشروط إنتاج المعنى في مختلف البُنى الخطابية. وقد جاء هذا العمل بعد انتفاضة الطلبة عام ١٩٦٨م والتي أيدها فوكو، رغم أنه لم يكن متواجدًا في فرنسا حينها. يلتقي فكر فوكو في هذا العمل وما تلاه من كتابات مع الخصائص الفكريّة والثقافيّة المميزة لتيار مابعد الحداثة، فقد بدأ فوكو بالبحث عن الاختلاف وليس عن التماثل والتجانس في بنية الخطاب، وأخذ يدرس كل ما هو هامشي وعرضي وتافه في الممارسات الثقافية للحقب الحضارية المختلفة، وهو ما أطلق عليه (الحدث الأركيولوجي). وقد تمحورت كتابات فوكو حول قضايا كانت بعيدة كل البعد عن مجالات البحث الفلسفي التقليدي. فقد تعلّقت اهتماماته بالجنون، والمصحّات النفسية، والمستشفيات، والإجرام والمجرمين، والسجون، والجنس وموقعه وإشكالياته الثقافية والحضارية. وبعد (حفريات المعرفة) كَتَبَ فوكو (نظام الخطاب) عام ١٩٧١، و(المراقبة والعقاب) عام ١٩٧٥، و(تاريخ

١. عسكرزاده ورسول رسولي بورا، «مابعد بنيويّة جاك دريدا - مقاربة نقديّة استنادًا إلى آراء العلامة الطباطبائي»، ١٤٧.

الجنسانية)، ذلك العمل الضخم الذي لم يكتمل بسبب وفاته عام ١٩٨٤، والذي صدرت منه ثلاثة مجلدات (إرادة العرفان) و(استخدام اللذة) و(العناية بالذات)، والذي يعد عرضا زمنيًا لأشكال السلوك الجنسي عبر الحضارات الغربيّة[1].

ومع تحوّل فوكو بعيدًا عن الفكر البنيوي أخذت بعض المصطلحات تكتسب دلالات مغايرة في كتابات فوكو عمّا كانت تعنيه في أعماله المنشورة في فترة الستينات من القرن الماضي. من أبرز تلك المصطلحات التي أصبحت تشير إلى حقول دلالية واقعة ضمن فكر وفلسفة مابعد البنيويّة ما يعرف بالنظام، فالنظام لم يعد يشير إلى التكرار والتجانس واللّازمنية والثبات، كما في الفكر البنيوي، وإنما أصبح يرتبط بدلالات التعدديّة والتشتّت والكثرة والاختلاف. ولم يعد هناك نظام واحد، فطبيعة النظام تتعدّد وتتغيّر حسب طبيعة البنية الخطابية وما تتطلّبه من آليات الفرز والتصنيف[2].

كما يطرح فوكو فكرة «الجينالوجيا»، وهي فكرة نيتشوية تسعى إلى إسقاط شرعية الحاضر بعزله عن الماضي، و«الجينالوجيا» عند فوكو فكرة تشكّل تاريخ يعلِّلُ تأسيسَ المعارف، والخطابات، ومجالات المواضيع... إلخ، دون وجوب الإحالة على ذات[3]. فتركّز «الجينالوجيا» على السلطة بدل المعرفة، وعلى الممارسات بدل اللغة. فيرفض فوكو الانقطاعات والتحقيب التاريخي والجدل الديالكتيكي الهيغيلي وتصوره للتاريخ بوصفه صيرورة جدلية أو استمرارية تتطور خطّيًّا نحو غاية ونقطة ميتافيزيقية أو تاريخية معينة. فالجينالوجيا ترفض التسليم بوجود

١. أبو رحمة، «فوكو بين الوجودية والبنيويّة ومابعد البنيويّة».

٢. م. ن.

٣. هارلند، ما فوق البنيويّة – فلسفة البنيويّة ومابعدها، ٢٢٣.

تاريخ متجانس يتحرّك على نحو خطّي تطوّري وتصاعدي، وتؤكّد على أنّ اللحظة التاريخيّة عبارة عمّا لا يُحصى من العوامل والقرارات والمواقف، وهي تقوم على الانتشار والتشتّت حول بؤر متعدّدة ضمن اللحظة الراهنة[١]. وبتبنّي فوكو لمفهوم «الجينالوجيا»، فإنه لا يتجاوز الفلسفة الهيغلية فحسب، ولكنه يتجاوز كلًّا من الماركسيّة والوجودية في الوقت ذاته.

وفي حين يرى البنيويون أنّ الإنسان لا يملك وسيلة للوصول إلى الحقيقة إلا عبر اللغة وبنيتها وليس العكس، فإن فوكو يرى أنّه من المستحيل الوصول إلى الحقيقة، حتى عبر اللغة، «فالحقيقة سوف تبقى على الدوام خافية ومكتومة خلف ركام لا نهاية له من الألفاظ»[٢]. فكل شيء تابع لميتافيزيقية الوجود، والدالّ الكلامي مائع يسبح دائمًا بعيدًا ومتحرّرًا عن المدلول، وهذه الفكرة نجدها عند جلّ أنصار مابعد البنيويّة. وبهذا تصبح اللغة سائلة قابلة للانزلاق وللانسكاب، والعلامات تتركّب عشوائيًا، لأنّها تملك ديناميكية لا تظهر إلا في النص المكتوب، حيث تعيد تشكيل وخلق معانٍ جديدة ضدّ المعنى الظاهر، ولاسيما أن النص يبقى بعد موت الكاتب، فيعمل النص ضد ذاته حسب رؤية قارئه. وهكذا لا يمكن لمعاني الكلمات أن تكون ثابتة، فالكلمات مشوبة بأضدادها، فمثلًا: لا يمكن إدراك «العتمة» إلّا بالرجوع إلى مفهوم «النور». وقلب العلامة بين المتضادات يؤدي إلى عدم استقرار اللغة التي هي أساس فلسفة «مابعد البنيويّة» التي تركّز على قراءة النص ضد نفسه، والبحث عن «لا وحدته» بدل وحدته، وعما كُتب فيه في «اللاوعي» بدل الظاهر السطحي. ومن ثمّ تصبح النصوص

١. أبو رحمة، «فوكو بين الوجودية والبنيويّة ومابعد البنيويّة».

٢. عسكرزاده ورسول رسولي بورا، «مابعد بنيويّة جاك دريدا - مقاربة نقديّة استنادًا إلى آراء العلامة الطباطبائي»، ١٥٩.

الفلسفيّة، بل والعلميّة محض نصوص بلاغية مجازية مكتفية بذاتها ولا تشير إلى أي شيء خارجها[١].

وهكذا يتّضح لنا أن فوكو يرفض اليقين في كلّ ما تتحدّث عنه الفلسفة، وهو في رأينا ادّعاء لا يملك صاحبه عليه دليلًا واضحًا. بل يحيلنا إلى تساؤل مهمّ فحواه: ما الذي جعل «مابعد البنيويين» يتشكّكون في العقل وقدرته على المعرفة بهذا الشكل؟ وكيف عملوا على تحجيم العقل بهذه الصورة وسلبوه أي قدرة على المعرفة اليقينية أو تقديم قوانين عامة وكلية بعيدًا عن جميع أنواع النسبية والتشكيك في باب الحقيقة الواقعية؟ وعلى أي معيار بنوا نتائجهم الصادمة في العقل ليصلوا إلى مثل هذه النسبية؟ ألا يعدّ هذا تناقضًا صارخًا؟! إن مثل هذه الأسئلة تجعل من الموقف مابعد البنيوي موقفًا هشًا مائعًا تبدو معه كل المعاني سائلة غير محدّدة، ينتفي معها كل يقين. وبذلك تتشابه مع التفكيكية التي تعدّ من أهم ملامح مابعد البنيويّة، وهي تبدو كفلسفة ومنهجية لقراءة النصوص في آن واحد، وهو ما سنتناوله بالتفصيل في المبحث التالي.

ثالثًا. التفكيكيّة كفلسفة ومنهج لقراءة النصوص

تعدّ التفكيكيّة فلسفة ومنهجًا في آن واحد؛ فهي من حيث هي فلسفة، إحدى ملامح فلسفة مابعد الحداثة التي تدعو إلى فكّ الصلة بين اللغة كدالّ وبين المفهوم في الذهن كمدلول؛ حيث لا تؤمن هذه الفلسفة بأي وجود ذهني مجرد للأفكار، وبالتالي فهي ترى أن اللغة ليست أداة لنقل المعرفة وإنما هي أداة إنتاجها، وترى بأسبقية اللغة على الواقع. وأما من حيث كونها منهجيّة فهي تعدّ أبرز مناهج التحليل الفلسفي والأدبي التي تنتمي إلى مناهج مابعد الحداثة. وهي

١. المعرفة، «مابعد البنيويّة».

منهجيّة ترفض التحليل الثابت للنص وتدعو إلى منح النص معانيَ جديدة غير ثابتة؛ أي أنها منهجيّة نقديّة تدعو إلى انفتاح النص بالشكل الذي يجعله قابلًا لاستيعاب عدد لا متناهٍ من التأويلات المختلفة، وقد جاء هذا المنهج كردة فعل على المناهج البنيويّة وعلى فكر الحداثة وتقاليدها التي كانت تسعى لإيجاد مركز بنائي ثابت، مع افتراض وجوده المسبق، ترتكز عليه كل دعائم الوجود، وهو ما يسميه الفلاسفة بالجوهر والوجود والكينونة والوعي والحقيقة والله والإنسان، ليشكّك بكل ما تقوم عليه من أفكار؛ لذا فإنّ من أبرز وأخطر سمات المنهج التفكيكي قيامه على جدلية البناء والهدم للبناء إلى ما لا نهاية[١]، أو كما يقول دريدا: «إن هناك في النص قوى متنافرة تأتي لتقويضه وتجزئته»[٢].

فالمنهج التفكيكي يحاول تفكيك النص بالوقوف على اللغة المستعملة في النص من منظور القارئ بعيدًا عن كاتب النص أو مؤلِّفه، فهو منهج يعتمد آلية «موت المؤلِّف»؛ حيث إنّ هذا المؤلِّف لم يعد له أي صلة بالنص، وبات الأمر كله بيد المتلقّي الذي يصير بإمكانه أن يستخرج منه ما لم يخطر على ذهن الكاتب أثناء كتابته لنصه، فالنص لم يعد يحمل معنى واحدًا يحتكره الكاتب المنشئ للنص، ولكنه -مع المنهج التفكيكي- يمكن إعطاؤه تفسيرات لا متناهية بعدد القراء والمتلقّين، ومن ثم فهي منهجيّة تعمل على إثراء النص الذي قد يأخذ معانيَ مختلفة باختلاف المجتمعات والأزمان، حيث تعتبر التفكيكيّة كل قراءة للنصّ هي بمثابة تفسير جديد له، وتقول باستحالة الوصول إلى معنى نهائي وكامل لأيّ نصّ.

وتقوم التفكيكيّة كفلسفة ومنهج على مجموعة من المقولات التي تشكّل بنيتها

١. العكلة، «المنهجيّة التفكيكيّة... معاثرها وأسباب ظهورها وعوامل انتشارها (دراسة نقديّة)»، ١٢٧.

٢. دريدا، الكتابة والاختلاف، ٤٩.

الفكريّة، وتعبّر عن آلية ممارسة منهجها. وهنا يستدعي الأمر الوقوف عليها لأنها سوف تعكس إلى حد بعيد طبيعة الفلسفة التفكيكيّة وبيان فعالية منهجها النقدي، وتتمثّل في خمس مقولات مهمّة، نعرض لها فيما يلي:

عدم ثبات العلاقة بين الدال والمدلول: يعمل التفكيكيّون على اللعب بقضية العلاقة بين الدالّ والمدلول، وبيان عدم ثباتها، فالدوالّ غير ثابتة مع المدلولات، ولكنها حركية ديناميكية تعمل على تعدد المعنى ولا تناهيه، فلا وجود لدالّ ثابت مع مدلوله، فاللغة تدمّر معانيها بنفسها؛ لأن لكل لغة مجازًا، تعمل في هذا المجاز وتضيف إليه التشبيه، والمجاز يقوم بالأساس على القدرة على إبدال رمز برمز أو دلالة بدلالة أخرى. فالنص فضاء متعدّد الأبعاد تتمازج فيه كتابات متعددة وتتعارض؛ وما ذلك إلّا لأنّ الكتابة عند التفكيكيّين «قضاء على كلّ صوت، وعلى كلّ أصل، والتالي فإنّ الكتابة بهذا المعنى هي هذا الحياد، هي أيضًا هذا التأليف واللفّ الذي تتيه فيه ذاتيّتنا الفاعلة، بل إنّها السواد/ البياض الذي تضيع فيه كلّ هوية»[١]. وهذا بلا شك يؤدي إلى متاهات لفظية، وعدم ثبات المعنى المتعارف عليه؛ مما يؤدي إلى البلبلة والتشويش، ويستحيل الوصول إلى اتّفاق نهائي حول أيّ قضيّة، فيغرق العالم في سيل من النسبيّة والتعدديّة. ويدخل أي نص يمكن إخضاعه لمنهجيّة الفعل التفكيكي فضاءَ عالمٍ غير محكوم بآليات عقلية يسمح بتعدد التفسيرات انطلاقًا من الاستفاضة في الوصف الذي لا يخضع لحالة مستقرة.

نقد المركزيّة: وبعبارة أخرى نقد التمركز[٢]: فالمركز شيء إيجابي لحركة الدلالة والمعنى، ومع غياب المركز يتلاشى النص ويتبعثر يمينًا ويسارًا، ولكن أن يظل

---

١. بارت، مقالة موت المؤلّف - درس السيميولوجيا، ٨١.

2. Critic of Centricity

المركز مطلقًا فهذا يعني التمركز؛ أي أن تقوم بنية مركزيّة تدّعي لوحداتها النموذج المتعالي على النص كله، فهذا كله يجعل النص عند التفكيكيين جامدًا وساكنًا ومملًا؛ ولذلك دعا رولان بارت إلى نظريّة «موت المؤلّف» ليفسّر القارئ النص وفقًا لثقافته أو بيئته أو تعليمه أو توجّهاته؛ لأن استمرار الصلة بين المؤلِّف والنص، كما يقول بارت: «تؤدي إلى إيقاف النص وحصره وإعطائه مدلولًا نهائيًا، إنها إغلاق الكتابة»[١]. ولكنّ هذا في نظر بارت لا يفيد النص ولا متلقّيه المشاكس غير المستسلم الذي يظل دومًا في حالة بحث عن شيء ما داخل النص، وخارج ما أراد المؤلِّف قوله، وهو الأمر الذي يؤدّي -من وجهة نظرنا- إلى تعدد القراءات للنص الواحد، وكل قراءة تنكر سابقتها وربما تسيء إليها. كما يؤدي نقد المركز إلى إنكار المركزيّة الإلهية للكون، وهو الأمر الذي ترفضه المرجعيات والمؤسّسات الدينية ورموزها؛ لأنها وجدت فيه تهديدًا مباشر للدين ومحاولة لهدمه[٢].

إحلال اللغة محلّ المؤلِّف: يشير رولان بارت إلى ضرورة أن تحل اللغة محل المؤلِّف؛ فبالرغم من أنّ مملكة المؤلّف لا تزال شديدة القوة، لكن المنهج التفكيكي يعمل جادًّا على إضعافها وخلخلتها، ليستبدل بها اللغة، فاللغة -عند بارت وغيره من التفكيكيين- هي التي تتكلّم وليس المؤلِّف، أن أكتب -كما يقول بارت- «معناه محو أولي لشخصي، (هذا المحو الذي ينبغي أن نميزه عن الموضوعية التي كان يقول بها كتاب القصة الواقعية) تلك النقطة التي لا تعمل فيها إلا اللغة وليس أنا»[٣]. لأن «نسبة النصّ إلى مؤلِّف معناها إيقاف النصّ

١. م. ن، ٨٦.
٢. العكلة، «المنهجيّة التفكيكيّة... معاثرها وأسباب ظهورها وعوامل انتشارها (دراسة نقديّة)»، ١٤١.
٣. بارت، مقالة موت المؤلِّف - درس السيميولوجيا، ٨٣.

وحصره وإعطاؤه مدلولًا نهائيًّا»[١]. وبناء عليه يصبح القارئ هو النقطة الأهمّ الذي يعطيه التفكيكيّون الأولويّة، فيقول بارت: «القارئ هو الفضاء الذي ترتسم فيه كل الاقتباسات التي تتألّف منها الكتابة دون أن يضيع أيٌّ منها ويلحقه التلَف. فليست وحدة النص في منبعه وأصله، وإنما في مقصده واتّجاهه ... فالقارئ إنسان لا تاريخ له ولا حياة شخصيّة ولا نفسية. إنه ليس إلا ذاك الذي يجمع فيما بين الآثار التي تتألّف منها الكتابة داخل نفس المجال... فميلاد القارئ رهين بموت المؤلِّف»[٢].

الإرجاء والاختلاف: وتلك سمة مهمة وخطيرة في المنهج التفكيكي الذي يُرجئ دائمًا القول النهائي، فكل رأي راهن ليس قطعيًا ولا أخيرًا، بل إنّه في انتظار رأي جديد ينسخه ويحل محله، لكن هذا الرأي الجديد لا يأخذ أبدًا صفة المطلقية، بل يظل هكذا في انتظار رأي أحدث منه يدحضه ويحل محله. فالإرجاء يجعل الدلالة غير حاضرة، والعنصر يكون موسومًا بشيء من أثر العنصر السابق، وتاركًا نفسه للعنصر القادم يحفر فيه علامة جديدة. ولهذا كان الإرجاء والاختلاف يقود إلى مقولة لا نهائية المعنى مما يعني حالة من توالد المعاني المتتالية، وبالتالي حضور معان ثم غيابها بشكل متتال ومستمر، وقد أكّدت نظريات القراءة والتلقي فكرة تعدد التأويلات، واختلاف القراءات نتيجة لاختلاف القرّاء، مما يعني موت فكرة المعنى الموروث للنصّ؛ لأنّه أصبح قابلًا لعدد لا متناه من التفسيرات والتأويلات؛ إذ يؤدّي اختلاف القراءة زمانيًّا ومكانيًّا إلى اختلاف نظرة القارئ للنص، وبالتالي اختلاف معناه باختلاف فهمه،

---

١. م. ن، ٨٥.

٢. م. ن، ٨٧.

فالعلاقة بين القارئ والنص علاقة خاصة، فلكل قارئ تصورات وانفعالات مختلفة، ولهذا فإن النص لا يكون نصًا كاملًا، فمعنى النص ينتج من تفاعل بينه وبين متلقيه، لذا فإنّ النصّ سيتجاوز صاحبه الأصلي وسينتج أبعادًا أخرى عبر القراءات المتنوّعة التي سيتعرّض لها[١].

التناصّ أو التكرارية: والتكرارية بالمعنى التفكيكي هي العملية التي تتيح لأي منطوق أو مكتوب أن يندرج في سياق مغاير ومختلف في كل مرة عمّا كان عليه من قبل. فالنص حسب هذا المفهوم يتكرّر، ويتكرر في شكل مغاير، فهو في كل مرة النص نفسه، وفي كل مرة نصّ جديد، والتكرارية تختلف عن الإعادة فالأخيرة تطابق نفسها ولا تغايرها[٢]. فالتكراريّة إذن تفضي إلى وجود اختلاف في الإعادة؛ حيث تنكشف حجب معانٍ أخرى حسب السياق لنفس الجمل المعادة. فهي كما يقول زيما: «لعبة ضد مبدأ السيطرة والقمع على المستوى اللغوي، المقالي»[٣]. وهذه الخاصية تعد في الحقيقة امتدادًا لمقولة لا نهائية المعنى، والتي تعني أن قراءاتي للنص تستدعي في ذهني نصًا آخر ممّا؛ يفتح النصّ على تأويلات واستحضار لمعانٍ جديدة مستوحاة من النص الحاضر في ذهن القارئ. وبذلك تكون قد اجتمعت كافة مقولات التفكيكيّة على امتلاك النص على عدد لا نهائي من المعاني، وعلى تجاوز المؤلِّف الذي تنتهي مهمته بطرح النصّ للتداول بين القرّاء.

وهكذا تؤدّي فلسفة مابعد البنيويّة/ التفكيكيّة إلى موت المعنى وموت المؤلِّف وموت جميع الثوابت، والوقوع في متاهات لفظية بدعوى تحليل الخطاب من

---

١. العكلة، «المنهجيّة التفكيكيّة... معاثرها وأسباب ظهورها وعوامل انتشارها (دراسة نقديّة)»، ١٣٥.

٢. بريمي، «أطياف المعنى – التفكيكيّة ومطاردة العلامات»، ٦٥.

٣. زيما، التفكيكيّة– دراسة نقديّة، ٢٣.

أجل الانتهاء إلى لا شيء. ولم تعد هناك معرفة ممكنة، وانتهت فعالية قوانين الفكر الأساسية، وفي مقدمتها قانون الهوية، ولم يبق إلا قانون الاختلاف. وتحول الخطاب إلى مجموعة من الألفاظ، إلى مونادات لا رابط بينها بلغة ليبنتز، وأصبح الخطاب غاية نفسه وليس أداة لإيصال معنى أو لاقتضاء فعل. إنّ الكتابة عند التفكيكيّين تبدأ من الصفر وتنتهي إلى الصفر، وكل قول ينتظر قولًا آخر يدحضه ويحل محله. لتنتهي مابعد البنيويّة وربيبتها التفكيكيّة كما يقول الدكتور محمود حيدر إلى «فقر بيِّن يحول دون انجاز منظومة تتجاوز المعاثر المعرفيّة، سواءً في عالم الأفكار أو في العالم الواقعي»[١]. كما يشيان بتهافت الفكر الغربي وسقوطه، بل وإفلاس المشروع الغربي بأكمله، بعد أن تراكمت في الوعي الغربي فلسفات العدم التي أصبحت إحدى علاماته الرئيسية دليلًا ومؤشرًا على مصيره.

خاتمة انتقاديّة

نتنهي في هذا البحث حول «مابعد البنيويّة ومنهجيّة التفكيك» إلى مجموعة من الملاحظات النقديّة نوجزها فيما يلي:

أوّلًا: تعدّ آلية «موت المؤلِّف» التي اعتمدتها «مابعد البنيويّة» والمنهج التفكيكي آلية ذات أساس فلسفي خالص تعود إلى مفهوم «موت الإله» عند نيتشه، والتي تعني موت المطلق والمتعالي والمفارق والحقيقة الثابتة، وفتح المجال أمام الذات ليكون لها الحرية المطلقة دون أي مرجعية مركزيّة فكرية تقليدية.

ثانيًا: تؤدي رؤية مابعد البنيويّة/ التفكيكيّة لقراءة النص إلى استحالة الوصول إلى معنى نهائي وكامل لأي نص، واستحالة معرفة الواقع خارج نطاق الخطاب المستخدَم أو التعبير عنه. ومن ثم تصبح النصوص الفلسفيّة، بل والعلميّة، بمثابة

١. حيدر، «عرضية المنهج وأعراضه»، ١١.

نصوص بلاغية مجازية مكتفية بذاتها ولا تشير إلى أي شيء خارجها، وبالتالي لا يمكن لأي كاتب أن يتمكّن من التعبير بشكل سليم عما يجول بخاطره من خلال نصه، ولا يتمكّن المتلقي أو القارئ من الوصول إلى مراد فهم الكاتب أو المؤلِّف أيضًا، كما لا يتمكّن الناقد من أن يوصل حيثيات نقده؛ لأن لدى الجميع عقولًا مختلفة ومتأثرة ببيئات وعوامل لغوية وحياتية مختلفة، وكل ذلك يؤثّر في عملية فهم النص واستيعابه عند الجميع، وما يسري على النص الأدبي يسري على النصوص الدينيّة، بل والنظريّات العلميّة، فلا أحد حينذاك يمكن أن يدّعي بأنه يتكلّم بالحقيقة أو العلم، وإن تم ذلك فالآخرين سوف يفهمون الحديث بشكل نسبي، وكل حسب مزاجه ومدخلات فهمه المتباينة.

ثالثًا: إن عزل النص -كما تروم مابعد البنيويّة/ التفكيكيّة- عن تاريخه الذي أُنتج فيه، وعن ظروف عصره، وعن أحوال مؤلِّفه، هو هدمٌ للنص، وليس تفسيرًا أو تأويلًا له؛ لأن ذلك يعمل على تجريد النص من معانيه الأصلية؛ فالكاتب ابن عصره، يعالج ظروفه هو، ومشكلاته وأزماته التي يعاصرها، فإقصاؤه وإبعاده بعيدًا عن نصه، ثمّ تحميل هذا النص بمعان ومضامين جديدة لم يقصدها منشئ النص، هو هدمٌ للنص وقتلٌ للمعنى، مما يقود إلى سوء فهم الكثير من المصطلحات والتراكيب، وضياع لكافة الحقائق. كما أن تطبيق المنهج التفكيكي على النص الديني يؤدي إلى نزع القداسة عنه، وتحريف معناه الثابت الذي قصده الله سبحانه وتعالى.

رابعًا: تنتهي مابعد البنيويّة والمنهجيّة التفكيكيّة إلى «موت المعنى»، وهو خطر عظيم، فغياب المعنى هو غياب لكل الحقائق المطلقة: «الإله»، والبعث، والمعاد، والشرائع، والأخلاق، والقيم، والمثل العليا، ولا توجد إجابة واحدة للأسئلة

الوجودية العظمى: لماذا وُجِد الإنسان؟ لماذا أُعطي العقل والإرادة وتميّز عن الحيوان؟ أهناك غاية من وجوده؟ أله مهمة في حياته؟ أم وُجِدَ لمجرّد أن يأكل كما تأكل الأنعام، ثمّ ينفق كما تنفق الدواب؟ كلّ هذه الأسئلة وغيرها لن تكون لها إجابة واحدة، بل ستكون لها إجابات بعدد البشر أنفسهم. وهو الأمر الذي سيخلص إلى العدميّة والعبثيّة، وإلى أن تصبح الحياة بلا معنى ولا هدف. و«موت المعنى» في تقديري أخطر أزمة من الممكن أن تصيب حضارة ما، بل هو أخطر من أزمة الغذاء، فأزمة الغذاء تلحق الجسد، لكن «أزمة المعنى» تلحق نفسية الإنسان وروحه، فتسلّمه إلى الشقاء، ولو كان غارقًا في نعيم الجسد. كما تنذر سيادة هذه الفلسفات في الغرب بسقوط الفكر الغربي، وتبيّن تهافته وهشاشته، وأنّه لولا تمترسه وراء القوة المادية (الاقتصاديّة والعسكريّة) لانكشفت سوءاته للعالم أجمع.

المصادر

١. بارت، رولان، لذة النص، الترجمة: منذر عياشي، سورية، مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٢م.

٢. ــــــــ، مقالة موت المؤلِّف - درس السيميولوجيا، الترجمة: عبد السلام بن عبد العالي، ط٢، الرباط - المغرب، دار توبقال، ١٩٨٦م.

٣. بريمي، عبد الله، «أطياف المعنى - التفكيكيّة ومطاردة العلامات»، مجلة أطياف، وزارة الثقافة، العدد(٢)، ٢٠١٠م.

٤. بلعفير، محمد بن عبد الله بن صالح، «البنيويّة (النشأة والمفهوم) عرض ونقد»، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، العدد(١٥) المجلد(١٦)، يوليو- سبتمبر ٢٠١٧م.

٥. حنفي، حسن، مقدمة في علم الاستغراب، القاهرة، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ١٩٩١م.

٦. حيدر، محمود، «عرضية المنهج وأعراضه»، مجلة الاستغراب، العدد (٢٧-٢٨) بيروت، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ربيع/ صيف ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م.

٧. دريدا، جاك. «البنية والدال واللعب في خطاب العلوم الإنسانيّة». مجلة فصول، المجلد ١١، العدد ٤. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

٨. ــــــــ، الكتابة والاختلاف، الترجمة: جهاد كاظم، الدار البيضاء - المغرب، دار توبقال للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٠م.

٩. زيما، بيير.ف.، التفكيكيّة- دراسة نقديّة، تعريب: أسامة الحاج، بيروت، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٦م.

١٠. عسكرزاده، مهدي، ورسول رسولي بورا، «مابعد بنيويّة جاك دريدا - مقاربة نقديّة استنادًا إلى آراء العلامة الطباطبائي»، مجلة الاستغراب، العدد (٢٧-٢٨) بيروت ، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ربيع/ صيف ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م.

١١. العكلة، حمدان، «المنهجيّة التفكيكيّة... معاثرها وأسباب ظهورها وعوامل انتشارها (دراسة

نقديّة)»، مجلة الاستغراب، العدد (٢٧-٢٨) بيروت، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ربيع/ صيف ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م.

١٢. غارودي، روجيه، البنيويّة فلسفة موت الإنسان، الترجمة: جورج طرابيشي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩م.

١٣. ليشته، جون، خمسون مفكرًا أساسيًا معاصرًا من البنيويّة إلى مابعد الحداثة، الترجمة: فاتن البستاني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، أكتوبر ٢٠٠٨م.

١٤. المسيري، عبد الوهاب، «دريدا في القاهرة: التفكيكيّة والجنون»، مجلة أوراق فلسفية، العدد (١٢)، القاهرة، ٢٠٠٥م.

١٥. هارلند، ريتشرد، ما فوق البنيويّة - فلسفة البنيويّة ومابعدها، الترجمة: لحسن أحمامة، سورية، دار الحوار، ط٢، ٢٠٠٩م.

المواقع الإلكترونية

١٦. أبو رحمة، أماني، «فوكو بين الوجودية والبنيويّة ومابعد البنيويّة»، مقال إلكتروني منشور على الرابط التالي:

https://amaniaburahma.blogspot.com/2016/10/blog-post_21.html?spref=fb

١٧. الأبنودي، غلاب عليو حمادة، «اغتيال النص - نقد نظريّة موت المؤلِّف لرولان بارت (قراءة هيرمنيوطيقية)»، مقال منشور بأكاديمية بالعقل نبدأ، على الرابط التالي:

https://mashroo3na.com

١٨. المعرفة، «مابعد البنيويّة»، تم الدخول عليه في ١٢/ ١٢/ ٢٠٢٣.